الكتاب المقدّس والسلطة في الكنيسة

د.نقولا أبو مراد

في حنية كنيسة القدّيسة مطرونة في سانتا ماريا دي كابوا فيتيري، في جنوب إيطاليا، فسيفساء لعرش إمبراطوريّ باللون الأزرق الملكيّ، وعلى العرش يستريح درجُ الأسفار المقدّسة محيطةً به الوجوه الأربعة التي رآها حزقيال، وجهُ الثور ووجه النسر ووجه ووجه الأسد ووجه الانسان، شاخصةً إلى العرش والمستقرّ عليه. لا بدّ أنّ مبتكري هذا الرسم وصانعيه في القرن الخامس، عرفوا دورَ الإمبراطور وحضورَه في مجمعي نيقية ٣٢٥ والقسطنطينيّة ٣٨١ على الأقلّ، وربّما أيضًا أفسس ٤٥١، وكيف كان يُستعاض عن غيابه عن الجلسات بالعرشِ موضوعًا عليه صولجانُه أو رداؤه ليكونَ هذا علامةً على دوام حضوره وقيام سلطانه طيلة فترة انعقاد المجمع. هل في هذا الرسم الذي لم يقتصر على كنيسة القدّيسة مطرونة بل نجده في مواقع أخرى عديدة وفي أشكال شتّى إلى أن اختفى في مرحلة ما بعد القرن السابع وحلّ مكانه السيّد جالسًا على العرش وفي يده الكتاب، هل في هذا الرسم رفضٌ ما للممارسة المجمعيّة التي أشرنا إليها وتأكيد على أنّ السلطان ممثّلاً بالجلوس على العرش، والملكيّةَ ممثّلةً باللون الأزرق، لا يراهما الضمير المسيحيّ إلاّ في الكلمة الإلهيّة معدّة للقراءة في اجتماع الكنيسة للعبادة، أي في تلك اللحظة التي تتجلّى فيها هذه الكنيسة جماعةً تحيط بسيّدها لتسمع منه «كلمات الحياة»؟

إنّ وجودَ الدرجِ (scroll)، لا الكتاب (codex)، في هذه الفسيفساء وفي كثيرٍ غيرها، نستشفّ منه تأكيدًا على كتابيّة الرسم، ذلك أنّ الدرج هو في الأساس أسفار العهد القديم في مركزيّتها في الممارسة العباديّة اليهوديّة في المجمع، ما يعني أنّ الكنيسة في القرن الخامس كانت لا تزال، في عبادتها بالأقلّ، كنيسة كتابيّة بالدرجة الأولى، أي ترى حضورها وتجلّيها على أساس الكلمة المكتوبة والمدرجة في الأسفار ببدايتها ونهايتها.

واللافت أيضًا في هذه الفسيفساء تحديدًا، وما يشبهها، حضورُ الوجوه الأربعة وهي تنظر إلى السفر، في نقل، كما أشرنا، لرؤيا حزقيال، حيث الحضور الإلهيّ يستقلّ عن جمود الهياكل ويتفلّت منه متحرّرًا، ليصير الريح أو الروح حاملاً لهذا الحضور إلى المطارح التي يشاء أن يكون فيها، إلى أن يتجلّى في كلمات يقولها الروحُ لابن الانسان سرعان ما تُكتَبُ في درج وتدخل إلى جوفِ ابن الانسان مأكلاً لكي تعود فتخرج منه نبوءاتٍ أي كلمات إلهيّة محيية بعد موت، ليكتملَ معنى الوجود الإنسانيّ كما تبيّنه نهاية كتاب حزقيال في مشهد شبيه بما نجده في كنيسة القديسة مطرونه وفسيفسائها: الربّ جالس على العرش في كلمته، في مكان اسمه «الربّ هناك»، وقد انتفى من هذا المكان كلّ سلطان إلاّ سلطانُ فمِه - حتّى جثث الملوك أخرِجَت - وصار هذا المكان شرقَ كلّ شيء.

أذكر هذا كمثالٍ في معرض كلامي عن إشكاليّات تكوّن النصوص المقدّسة في التقليد المسيحيّ لكي أؤكّد على جانب من اللاهوت المسيحيّ ربّما أُسدِلت عليه هنا وثمّة بعض السُتُر التي حجبته، وهو حضور الله في كلمته المكتوبة في وسط الجماعة، والذي، ولئن كان لا يزال بيّنًا في الأشكال والممارسات العباديّة، إلاّ أنّه اختزل جزئيًّا أو كلّيًّا في الأدب اللاهوتيّ وغالبًا في المنطلقات التي بني عليها ولا يزال.

إنّ الإشكاليّات التي أودّ أن أتحدّث عنها هنا ليست بالضرورة إشكاليّات تتعلّق بنشوء ما يسمّى قانون الكتاب المقدّس في عهديه القديم والجديد، بل بعض الإشكاليّات المتّصلة بفهم هذا القانون ونشوئه والعلاقة بين الكنيسة ونشوء القانون، وكذلك إشكاليّة تفسير الكتاب في الكنيسة أو من قِبَل الكنيسة. وتتمحور هذه الإشكاليّات كلّها حولَ موقع الكتاب في الكنيسة وموقع الكنيسة من الكتاب سواءٌ تشكيلاً أو تفسيرًا، كما تتّصل أيضًا بالعلاقة بين الكتاب والتقليد. ولا يغيب عن أحدٍ أنّ

هـذه الإشـكاليّة تلوّنـت بفعـل قيـام الإصـلاح البروتسـتانتي وردّ الكنيسـة الكاثوليكيّـة عـلى هـذا الإصـلاح، والـذي انتقـل، بشـكل مـن الأشـكال، إلى اللاهـوت الأرثوذكـسيّ، وقـد عـبّر عـن نمطـه المعـاصر اللاهـوتيّ الـروسيّ جـورج فلوروفسـكي في كتابـه «الكتـاب المقـدّس والكنيسـة والتقليـد. وجهـة نظـر أرثوذكسـيّة».

خلاصـة وجهـة النظـر هـذه أنّ الكتـاب هـو «بجملتـه مـن صناعـة الجماعـة في التدبـير القديـم والكنيسـة عـلى حـدّ سـواء». فهـو لا يشـتمل عـلى كلّ النصـوص التاريخيّـة والتشريعيّـة والتعبّديّـة الموجـودة، بـل عـلى نخبـة منهـا. وهـذه النخبـة أصبحـت ذات سـلطان مـن خـلال اسـتعمالها – وعـلى الأخـصّ في الليتورجيـا – في وسـط الجماعـة ومـن خـلال القيمـة التـي أعطتهـا لهـا الكنيسـة... فـما حصـل، وفـق هـذه النظـرة، أنّ بعضًـا مـن الكتابـات اختـير وجمـع وسـلّم بعـد ذلـك إلى المؤمنـين ليكـون نسـخة عـن الرسـالة الإلهيّـة مصادقًـا عليهـا. إنّ الرسـالة إلهيّـة وآتيـة مـن الله، بـل إنّهـا كلمتـه، لكـنّ الجماعـة المؤمنـة هـي التـي سـلّمت بصحّـة الكلمـة التـي قيلـت وهـي التـي شـهدت لحقيقتهـا. لذلـك فـإنّ الكنيسـة، كـما يقـول فلوروفسـكي، تؤكّـد الصفـة المقدّسـة للكتـاب بواسـطة الإيمـان.

ولأنّ الكتـاب ألّـف ضمـن الجماعـة بهـدف بنيانهـا فـلا نقـدر أن نفصـل الكنيسـة عـن الكتـاب المقـدّس. فالكتـاب والعهـد متّصـلان اتّصـالاً وثيقًـا، والعهـد يفـترض وجود شـعب، ولذلـك ائتمـن الشـعب عـلى كلمـة الله في التدبـير القديـم. أمّـا في التدبـير الجديـد فائتمنـت كنيسـة الكلمـة المتجسّـد عـلى رسـالة الملكـوت. فالكتـاب هـو حقًّـا كلمـة الله، لكنّـه يسـتند إلى شـهادة الكنيسـة التـي وضعـت قانـون الكتـاب وثبّتتـه.

طبعًـا هـذه النظـرة الرائجـة اليـوم بقوّة في الأوسـاط الكنسـيّة الأرثوذكسـيّة عامّـة، والتـي تعطـي، في نهايـة المطـاف، السـلطان في تكويـن النصـوص المقدّسـة للكنيسـة، تسـتند إلى لاهـوت للكنيسـة يعتبرهـا اكتـمالاً للتجسّـد الإلهـيّ، أي بمعنـى مـا المسـيح نفسـه في ملئـه الـذي يجمـع الـكلّ، عـلى اعتبـار أنّ المسـيح هـو الـرأس فقـط أمّـا الكنيسـة فهـي الأعضـاء التـي بهـا يكتمـل الجسـد.

أمّـا التقليـد، في رأي اللاهـوتيّ الـروسيّ المعـاصر، فهـو بالدرجـة الأولى تفسـير الكنيسـة للكتـاب، والـذي يحتكـم إليـه باعتبـاره فكـر الكنيسـة عـلى افـتراض أنّ الكنيسـة تمتلـك معرفـة الحقيقـة وفهمهـا أي حقيقـة الاعـلان ومعنـاه. فللكنيسـة، مـن خـلال التقليـد، سـلطان نـشر الإنجيـل وتفسـيره.

ولـئن كان أصحـاب هـذه النظـرة لا يـرون فيهـا دلالـة عـلى أنّ الكنيسـة هـي فـوق الكتـاب، إلاّ أنّهـم يعتـبرون الكنيسـة تقـف بجانـب الكتـاب تؤيّـده مـن غـير أن تتقيّـد بحرفـه.

وعـلى هـذا الأسـاس فالكنيسـة لهـا سـلطان تفسـير الكتـاب، لأنّهـا المتسـودع الحقيقـيّ الأوحـد للتعليـم الرسـوليّ. فهـذا التعليـم حفـظ بطريقـة حيّـة في الكنيسـة لأنّ الـروح أعطـي لهـا. والكنيسـة كانـت تعلّـم مشـافهة، فصـوت الإنجيـل الحـيّ لم يكـن مجـرّد تـلاوة لكلـمات الكتـاب، بـل هـو إعـلان لكلمـة الله كـما سـمعت وحفظـت في الكنيسـة بقـوّة الـروح الـذي يفعـل فيهـا دائمًـا ويحييهـا. أمّـا خـارج الكنيسـة وخـارج خدمتهـا الكهنوتيـة المتعاقبـة فلـم يتـمّ إعـلان صحيـح للإنجيل ولا تبشـير قويـم ولا فهـم حقيقـيّ لكلمـة الله. إذن، ووفـق هـذه النظـرة أيضًـا، أنّ التفتيـش عـن الحقيقـة في مـكان آخـر خـارج الكنيسـة الجامعـة الرسـوليّة سـيكون بـلا فائـدة.

في رأيـي أنّ في هـذه المنطلقـات إشـكاليّات كثـيرة. فحتّـى لـو حـاول أصحابهـا تزيـين كلامهـم بحديـث عـن الكتـاب عـلى اعتبـار أنّـه الوحـي والكلمـة الإلهيّـة، إلاّ أنّهـم يخضعـون نشـوءه وتكوينـه وقراءتـه وتفسـيره للكنيسـة، وهـذا يتناقـض بالدرجـة الأولى، في قناعتـي، مـع نظـرة الكتـاب نفسـه إلى الجماعـة أو الكنيسـة وتكوينهـا ونشـوئها. ذلـك لأنّ الجماعـة هـي التـي تتكـوّن ليـس فقـط عـلى أسـاس الكتـاب الإلهـيّ بـل فيـه أيضًـا، بمعنـى أنّهـا تقـف في كامـل مسراهـا بـين

دفّتيه مقروءةً منه، قبل أن تكون قارئة له، وهي تتفتّح معالمها بفعل تفسيره هو لها، قبل أن يكون لها السلطان الأوحد على تفسيره.

ومع إقراري بأنّ مواجهة كتّاب القرون الأولى ولاهوتييه لنزعاتٍ في المسيحيّة وجدوا فيها خروجًا على الإيمان حدتهم إلى التشديد على مرجعيّة التعليم المتوارث في الكنيسة منذ الرسل وما قبل الرسل، إلاّ أنّ استعمال أدوات هذه المواجهة لتنميط أشكال العلاقة بين الكتاب والكنيسة والتقليد بحسب النظرة التي أشرت إليها سابقًا، وتجميدها تترتّب عنه تبعات تضرّ بهذه العلاقة وكيف ينبغي لها أن تبدو، وذلك على صعد شتّى: فعلى الصعيد الليتورجيّ، تجعل أشكال العبادات المحفوظة وممارسة الجماعة الملتئمة سامعةً للكلمة الإلهيّة مقروءة، وتبديها قبل كلّ شيء محيطة بالكتاب الإلهيّ، وخاضعة له. وعلى الصعيد التفسيريّ، تمنع هذه النظرة محاولات الولوج إلى معنى النصّ بحجّة أنّها قد تخالف ما تسمّيه التفسير الآبائيّ للكتاب، فتحبس المفسّر والسامع للتفسير في كلّ آن ومكان في واقع وسياق ليس واقعهما وسياقهما. هذا وتجعل من تفسير الكنيسة الأوحد موحًى من الروح تمامًا كما الكتاب، وأحيانًا أكثر من الكتاب، على اعتبار أنّ تفسير الكنيسة يبرز أحيانًا أكثر ممّا هو في الكتاب.

ويترتّب على هذه الأمور جمود كبير، وتحجّر في هذا المكان أو ذاك، ومعطوبيّة في الفكر اللاهوتيّ بعامّة، بحيث تتشوّش الحدود في ما يُصار إلى اعتباره الكنيسة وما لا يعتبر كذلك، وتندثر خصوصيّات التفاسير الآبائيّة ويُمحى غناها وتعدّديتها لتغدو مقولة «التفسير الآبائيّ» وعبارة «الكنيسة» كيانين لا تعرف إلاّ اسماءهما ولا يمكنك أن تحدّد بدقّة إلام يشيران، فتارة تصبح الكنيسة «مدى مجمعيًّا» وطورًا أساقفة وكهنة، وحينًا آخر الجماعة بكلّيتها.

في اعتقادي أنّ ثمّة نمطًا في الكتاب وفي فهم الكنيسة وممارستها العباديّة يعبّر عن العلاقة بين الكتاب والكنيسة والتقليد يمكن إبرازه، ويصلح لأن يُستعاد، وتعبّر عنه تلك الفسيفساء الزرقاء التي بدأت حديثي بالإشارة إليها، ولحسن الحظّ أنّ هذا النمط محفوظٌ في التقليد المسيحيّ من القرون الأولى وإلى اليوم، وهو في شكل الممارسات العباديّة الخاصّة بالإفخارستيّة، والتي، للأسف، تختزل أحيانًا كثيرة ممّا يسمّى التقليد المسيحيّ.

والحقيقة أنّ صورة الدرج، أو الكتاب لاحقًا، ماثلاً على العرش الإمبراطوريّ محيطةً به وجوه الروح الذي يحمل الحضور الإلهيّ إلى حيث يشاء أن يهبّ، فيها ذلك التحرّر من الخضوع لسلطان الناس ممثَّلا، في الكتاب العزيز، بصورة الخروج من عبوديّة سلاطين الزمان سواءٌ ادّعوا تمثيل أنفسهم أو تمثيل إلههم أو آلهتهم، إلى حيث تقودك الكلمة الإلهيّة، على أن يكون وجهك إليها في كلّ حين.

فالخروج من مصرَ ليس في الكتاب حركةً تاريخيّة جغرافيّة في الأساس إنّما كان حركة عباديّة، غايتها تتحقّق في تجلّي الحضور الإلهيّ على طور حوريب في سيناء حيث تكشّف السلطان الإلهيّ في الكلمة الداعية إلى محبّة الله والقريب.

وكأنّ نصّ الرواية يسير بالقارئ من نمط استعباد المستلّطين للضعفاء في سيادة فرعون ممثّلاً سيادة الناس، إلى نمط عبادة الله في حفظك لكلمته الداعية إيّاك إلى المحبّة. وعند تعهّدك بحفظك إياها تتهيّأ لك مائدة مأكل ومشرب مع الحضرة الإلهيّة تغنيك عن قدور اللحم والملاذ التي كانت لك عند فرعون وأشباهه من الناس، ذلك أنّ الكتاب يقول عن شيوخ إسرائيل إنّهم إذ تعهّدوا بحفظ الوصية عاينوا الله وأكلوا وشربوا معًا على مائدته. ذلك هو أوج الخروج.

وعليه كانت الوصيّة الإلهيّة في الخروج، وهي غايتُه، هي المنشئة لجماعة اسمها إسرائيل، وقد أسماها اسطفانوس الشمّاس الشهيد في خطبته قبل إعدامه في أعمال الرسل «الكنيسة». وكانت لها تلك الوصايا كلمات محيية من رميمٍ، تمامًا كما انتشلت الأرض الخربة الخالية من اندثارها الأصليّ إلى حياة متوثّبة لأنّ الله قال لَما ينبغي أن يكون، «كن فكان».

غير أنّك إذا ما تابعت التالي من الروايات ترى أنّ هذه الجماعة التي أنشئت إذ تعهّدت بحفظ الوصيّة أخفقت في الحقيقة في الإيفاء بعهدها، وسرعان ما استبدلت الكلام الحيّ بالعجل المصنوع من زينة ذهبيّة مطروحةٍ، ليغدو صنم الفكر البشريّ إلهًا زائفًا قائمًا على كذب يعرف قائله فراغه وخلوه من الحقّ، ليعود بذلك الخارجون من ظلاميّة الطغيان البشريّ إلى ذلك الطغيان نفسه خانعين لا لسيادة آخر بل لسيادة فراغهم وكذبهم. هذه هي الجماعة في حركتها التاريخيّة. ولا أظنّني أنّ الكنيسة تختلف عنها كتابيًّا ولو قدّر لها أن تُدعى جسدًا للمسيح إذ دُعيت لحفظ الحقّ، ولكنّها إن غابت عن الحقّ غابت عنها الدعوة لتعود إلى دنسها وغضنها.

ولذلك صار الخروج رواية مستعادة ودعوة دائمة تتلقّاها الكنيسة في كلّ مرّة تلتئم فيها، والحقيقة أنّ مضيّ الجماعة إلى مكان عبادتها يشبه الخروج في رمزيّته ومداليله، فالشعب يسير وراء الأسقف حاملاً الكتاب الإلهيّ خارجًا أيضًا كبرياؤنا، لنلتئم حول الجالس على العرش والمتحدّث من عالم تطغى فيه وتسود سلاطين الناس، وتسود فيه نرنّم له قدوس قدوس قدوس، ونقبل من يده الجمرة التي تطهّر شفاهنا لنسمع نحن كلماته ونسمعها لآخرين لكي يسمع من يسمع ويبصر من يبصر حتّى تتحقّق فينا سيادته، أي خضوعنا لمَن شُتم وضرب وانسحق وأذلّ ومحق على أيدينا وأيدي الناس الظالمة في هذا التاريخ وفي كلّ تاريخ.

هكذا تعيش الكنيسة الحقّة تفسير الكتاب وقراءة الكتاب.